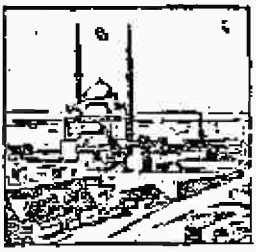

مكانة سوريا في التاريخ العالمي

٣ — أمل سوريا في الغرب ٤ — دين سوريا

٣ — أمل سوريا في الغرب

شاهدنا سوريا في الفصلين السابقين[1] في حالة الاستسلام وقابليتها للتأثر فقط ، تجتاحها القبائل العربية التي كوّنت اورومة سكانها ، وتكتسحها الاجناس العظيمة بين آسيا وافريقية واوربا فترغمها على الاعتراف بسلطانها والخضوع لنيرها ثم تصبغها بحضارتها وثقافتها . أما في الفصلين التاليين فسنرى سوريا في حالة التحفز والاستعداد ونرى هذه القبائل العربية التي اتخذتها مقرًّا وموطناً لها تنتهز تلك الفرصة الوحيدة السانحة لها فتحدث ذلك التأثير الذي رفعها الى اوج المجد والعظمة . ويحسن بنا أن نصف أولاً هذه الفرصة الوحيدة ثم نبحث في ذلك التأثير نفسه — أي التأثير الديني

لم يكن لسوريا في العصور الاولى سوى منفذ واحد تبعث منهُ رسالتها الى بقية العالم . وقد رأينا أنها لم يكن لديها شيء تقدمهُ الى الامبراطوريات العظيمة التي قامت على جانبيها — النيل والفرات — فما كان في وسعها الاَّ أن تكون أمة مقتبسة أو ناقلة تستمدّ ما كانت تحتاج اليهِ من الامم الاخرى . ولما كانت جبال طوروس حاجزاً منيعاً يحول دون تقدُّم سوريا الى آسيا الصغرى ، اذ أن الجنس الساعي لم يجتزها مطلقاً ، مع أنها لم تقف في سبيل نزوح بعض الشعوب الاخرى الى الجنوب ، لم تجد سوريا أمامها سوى البحر ، ولذلك فقد تحققت أنهُ الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من نشر ثقافتها الجديدة . وهكذا نجد أن بعض قبائلها التي لم تألف البحر من قبل ولم تعرف سوى رمال البادية تندفع غير هيابة الى الامام وتطرح بنفسها فيهِ وما كادت تخوض في لججهِ حتى الفتهُ مطرزاً بجزائر كما تطرز الصحراء الواحاتُ ، فاستطاعوا تدريجيًّا عن طريقها أن يدركوا اقصى سواحل اوربا الغربية

وأول ما يقع نظر الانسان عليهِ جزيرة قبرص اذ أنها قريبة جدًّا من الساحل ويمكن رؤيتها بالعين المجردة من أعالي تلال شمال سوريا . وفي بعض فصول السنة تشاهد من لبنان . ثم أن ساحل برّ الاناضول قريب المنال من هذه الجزيرة وكذلك جزيرة رودس تقع في

---

(١) راجع مقتطف يونيو ١٩٣١

مقدمة الارخبيل اليوناني ، مما جعل التنقل في البحر الابيض المتوسط ، حتى في أول عهد الملاحة ، بين بلاد اليونان ، وصقلية ، ومالطة والساحل الافريقي واسبانيا والمحيط الاطلسي أو شمالاً من ايطاليا الى سردينيا فكورسيكا ، فساحل غاليا (فرنسا الحديثة) في غاية السهولة . وفي مكنتنا أن نتتبع سير الفينيقيين في هذه الجزائر والسواحل من الآثار التي خلفوها كالاسماء السامية والسجلات والمحاضر والنقوش والخرافات

فلا غرابة اذن ، ان اكتسب الفينيقيون شهرة المخترعين بما بذلوه من الجهود الكبيرة في تأسيس الحضارة الافريقية القديمة . على أنهم ، في الحقيقة ، لم يكونوا اكثر من وسطاء أو نقلة ، اذ أن سوريا ، في بدء تاريخها ، لم يكن بوسعها أن تقدم الى الغرب سوى أشياء قليلة ، اللهم الا ما اقتبسته كليًا او جزئيًا ، من الأمم الاخرى ، فكان فنها مصريًا وكذلك فان حروفها الابجدية التي نشرتها في اوربا من مصادر مصرية أيضاً ، ولا يبعد أن تكون أوضاعها ومصطلحاتها التجارية التي ادخلتها الى اللغة اليونانية من آسيا منقولة عن غيرها . على أن اليونان مدينون الى الفينيقيين بامور أخرى لا ريب أنها من بنات أفكارهم وتتعلق باسماء الحروف والحضراوات والمعادن وبعض البضائع والسلع ، ولا سيما المعتقدات الدينية التي تتجلى أهميتها وعظمتها كلما تعمقنا في دراسة العلاقات الاجتماعية والتجارية مابين الجنسين . فانتشرت الخرافات والطقوس الدينية والمبادىء الاخلاقية في العالم الغربي وكونت أقدم عناصر الحضارة الاغريقية . وربما كان ذلك قبل بزوغ فجر التاريخ لان مدينة ترشيش كانت في عالم الوجود حوالي عام ١١٠٠ ق . م . كما أنه لا يبعد أن تكون هجرة الفينيقيين وانشاؤهم المستعمرات في الغرب مرتبطين بالاضطرابات والقلاقل التي سادت سوريا في القرن الرابع عشر

وقد وقعت هجرة مهمة اخرى بعد مضي خمسة قرون ، اذ حوالي سنة ٨٠٠ ق . م أنشأ بعض الذين هاجروا من صور بالغرب من مستعمرة فينيقية قديمة على ساحل افريقيا المقابل لجزيرة صقلية مستعمرة أخرى دعيت قرطا حداشا "Corta Hadasha" وهي تكاد أن تقابل باللغة البرانية « المدينة الجديدة » ثم حرفها الاغريق الى « كرشيدون » "Carchedon" والرومان الى « قرطاجو » "Carthago" . وقد بسطت قرطجنة في القرن السادس سيادتها على المستعمرات الفينيقية الاخرى في الغرب [٦] . وفي القرن الخامس بينما كان القسم الشمالي من الشرق يكتسح بلاد اليونان تحت قيادة الفرس حمل ساميو الشرق مرتين على اليونان من صقلية تحت زعامة قرطجنة [٧] . وكان قائد الحملة الثانية رجلاً يدعى

(٦) Freeman— Sicily (Story of the Nations Series), P. 56.

(٧) ٤٠٤ — ٤٧٣ ثم ٤١٣ — ٤٠٤

«هنيبال» ويحمل لقب «شوفت» "Shophet" كما كان يسمّى زعماء الفينيقيين وحكامهم، وهي كلمة عبرانية الاصل كانت تطلق على حكام بني اسرائيل من يشوع الى صموئيل. وما معنى هنيبال الا «نعمة بعل». أما المستعمرات اليونانية في صقلية فقد حافظت على كيانها معنىً ولكنها لم تتمكن من درء خطر الغزاة عن اوربا بل تركت هذه المهمة حتى قامت بها أمة أخرى

ان الحرب البونية الاولى «Punic» التي خاضت غمارها رومية لاسترجاع صقلية انتهت باقتصارها المبين على قرطجنة وطردها المستعمرين السوريين من الجزيرة. فقطع هميلكار مضيق جبل طارق سنة ٢٣٧ ق. م. ليمحو عن قرطجنة وصمة هذا العار الشائن واستولى ابنهُ هنيبال من بعده عام ٢١٨ على اسبانيا واجتاز جبال الالب الى ايطاليا. ولكن ثبت نهائيًا ان اوربا لن تخضع لنير الساميين ونكس هنيبال على عقبيه خائباً. وما أن ازفت سنة ٢٠٥ حتى أخضع الرومان شبه جزيرة ايبيريا وضموها الى امبراطوريتهم ثم تقدّموا الى افريقيا وجعلوها ولاية رومانية (٨)

عندما كانت قرطجنة في اوج مجدها وعظمتها كانت الاساطيل الفينيقية تخرج زرافات ووحداناً من شرق البحر الابيض المتوسط مارة ببلاد اليونان وايطاليا سائرة سيراً حثيثاً نحو الغرب فتقطع مضيق جبل طارق الى جزائر الكناري (٩) الى بحر غريب من الاعشاب والاشواك لعلّهُ كان البحر الذي صادفهُ كولمبوس في اتجاهه نحو اميركا فغرق في غاليا، فجزائر سيلي [جزائر التنك] بريطانيا محققاً، وطاف أحد امراء البحر من صور، بايعاز من الفرعون نخو حول افريقيا عام ٦٠٠ ق. م. (١٠) أو قبل فاسكودي غاما بالفي سنة

وبعد سقوط قرطجنة — وقد تداعت صروح صور قبلها بمائة سنة — اقتصرت العبقرية الفينيقية على التجارة والاشتراك بين آونة وأخرى في حروب كان فيها بعض الفينيقيين جنوداً مرتزقة. وكان الفينيقيون في عهد الامبراطورية الرومانية منتشرين في جميع انحاء البحر الابيض المتوسط لهم مساكنهم الخاصة وحياكلهم الدينية في المدن الكبيرة. ولما رسخت قدم رومية في الشرق وقوي نفوذها وازدادت شوكتها في فاتحة عصر الميلاد اندفع السوريون (١١) كالتيار الجارف الى ايطاليا أو كما يقول جوفنال، انصب نهر العاصي بنهر التيبر وكان بينهم عدد قليل من أساطين وفطاحل الخطابة والبلاغة والنحو والشعر والمجون، ولكن السواد الاعظم منهم كانوا من التجاسين والسوقة والرعاع والباعة الذين

(٨) وبعد مضي خمسين سنة كانوا يتداخلون في شؤون فينيقية، وما مضى ١٥٠ سنة على ذلك حتى جعلوا سوريا ولاية رومانية ايضاً (٩) Herodotus, iv. 42 (١٠) Didoorous Siculus 19-20
(١١) والاباط ايضاً

كانت تتسلط على نفوسهم الاوهام والخزعبلات الدينية السافلة

وفي غضون ذلك — من القرن الثالث عشر ق . م . الى القرن الاول للميلاد — نشأت أمة جديدة في المرتفعات الواقعة خلف فينيقيا رأساً، تتكلم بنفس لهجتها تقريباً . وقد سمحت ما كان يقصهُ الفينيقيون عن تلك الجزائر والسواحل الغربية: عن شطيم Chittim أي قبرص وعن رودس والجزر الايونية والبسا وبعض سواحل صقلية وايطاليا، وترشيش وهي اقصى مدينة بلغوها في أسبانيا . ومع أن هذه الامة لم يكن لديها مرفأ يصلها بالبحر فقد أطلقت لخيالها العنان في تتبع أسفار الفينيقيين وانما لغاية أسمى كثيراً من جر المنافع والمكاسب المادية ، وادعت لنفسها حق نشر بزور المثل العليا في العدالة والرحمة ومعرفة الاله الحقيقي في تلك الاراضي الساحلية واستئصال شأفة الخرافات السامية التي لصقت بها (١٢)

ان مَن يعلم ما أحدثهُ ذلك الدين الذي أرسلتهُ سوريا بواسطة الفينيقيين الى بلاد اليونان من التأثير الكبير في نفسية اليوناني القديم يذكر كيف ان اسرائيل كانت قريبة جداً من جارتها فينيقية في المواطن واللغة والاتحاد السياسي يخطر في نفسه هذا السؤال : أما كان بوسع فينيقية أن تحمل هذا الدين الاسرائيلي أيضاً كما حملت من قبله حروف مصر وبضائع بابل والخرافات السامية المستهجنة وعملت على نشرها ؟ أن ذلك لمن رابع المستحيلات ! فإما أن بني أسرائيل ، عند ما كان نفوذ فينيقية الديني في الغرب لايزال قوياً لم يصلوا بعد الى فلسطين أو أنهم لم يتوصلوا الى فهم جوهر دينهم فهماً يخولهم فرضهُ على الشعوب الاخرى — ولو كانت هذه الشعوب تعيش بجوارها وتمت اليها بصلة القربى — ولكن حينما تحققت اسرائيل من رسالتها وتيقنت بانها رسولة الله الى العالم أجمع ورأت في أسفار الفينيقيين وسيلة لنشر الحقيقة غرباً، لم يعد الفينيقيون حملة أو رسلاً بل صاروا أعداء الداء لكل جنس آخر على السواحل الشمالية والغربية من البحر الابيض المتوسط

واليك مثالاً ، على ما نقول، عصر ايليا « Elijah » لما كانت العلاقات بين اسرائيل وفينيقية أقرب منها في أي عصر آخر ، فان التأثير الديني لم ينحدر عندئذ من اسرائيل الى فينيقية بل من فينيقية الى اسرائيل ، فوامهُ محاولة نشر عبادة بعل في البلاد التابعة لا عبادة يهوه ، اذ أن الدين كان ، في الغالب ، أمراً سياسياً ، ولما كانت فينيقية صاحبة السيادة والسلطان في اسرائيل وكان بعل الهها أصح من الضروري أيضاً أن يكون بعل نفسهُ أحد آلهة بني اسرائيل ، ولذلك فاننا نجد أن اسرائيل كانت تبذل كل ما في وسعها من سعي حتى تثبت أن يهوه هو الاله والاله الواحد القهار المهيمن على حياتها الخاصة، اذ أنها متى

(١٢) اشعيا : صح ٤٢

أثبتت أولاً أنهُ إله العدل والطهارة والعفاف ، فلا ريب أنهُ سوف يأتي يوم يظهر فيهِ أنهُ اله العالم قاطبة وعندئذ لا يسع فينيقية والعرب إلاَّ الانضمام الى حظيرة الايمان . ولذلك فان مهمة ايليا كانت مقتصرة على بني اسرائيل مبدأً لهم الفرق الجسيم بين يهوه وغيره من الآلهة الاخرى ، فهو مثال للاستقامة والصلاح ، وهو الإله العالمي الذي لا يقصر اهتمامهُ على أمة من الامم أو شعب من الشعوب وانما يشمل الجميع برحمتهِ ومحبتهِ

ولكن ذلك يحملنا الى صميم موضوعنا التالي ، دين سوريا ، وكيف توصلت اسرائيل دون غيرها من القبائل السورية الى مثل هذا المعتقد الطاهر وهكذا الى احراز نصر مبين وفوز تام على العالم طرًّا . ولنختم هذا الفصل بقولنا أن أنبياء اسرائيل حين أدركوا وتحققوا ما لديهم العظيم من السيادة العالمية ، رأوا في الفينيقيين واسطة لتحقيق هذه الفكرة . ولذلك فان توسع فينيقية وانتشار سلطتها كان في نظرهم أمراً مقدساً ، فتراهم يتهللون ويبتهجون بآمالها الكبيرة وأعمالها العظيمة ، ويندب أشعيا وحزقيال تدمير صور واغراق اسطولها ويعدان ذلك تدنيساً لقداستها ، ولا يستطيع أشعيا أن يعتقد هذا التدمير أمراً حاسماً بل يرى أن فينيقية ستنهض نقية طاهرة وتتحرر من أسرها لتكون حاملة لواء الدين الحقيقي الى أطراف المعمورة (١٣)

٤ — دين سوريا

رأينا أن سوريا ، الشام ، هي الطرف الشمالي من العالم السامي وان سكانها ، من أعرق العصور في القدم ، كانوا ساميين أصلاً . ولذلك فقد قدر أن يكون الدور الذي مثلتهُ على مسرح التاريخ دوراً دينيًّا ، على الاغلب . فالساميون هم قادة الانسانية في الدين ، وقد نشأت من بين ظهرانيهم ديانات التوحيد العظيمة ، وكان منهم اكبر الانبياء وأجلهم شأناً وقدراً ، وذلك نتيجة لازمة لمزاجهم الطويلة في بلاد العرب ، اذ ان الحياة في تلك الصحراوات القاحلة تتلاءم كثيراً وتتفق اتفاقاً مدهشاً مع هذه المهمة السامية . فالطبيعة فيها على وتيرة واحدة وعوامل الملهو قليلة جداً ، هذا وان الصيام الذي لا بد منهُ في كل عام ، ينقي الجسم من عناصره الدنيئة فتسمو النفس وتتنزه عن الارجاس والدنايا . وينجم عن الجوع عاطفة غريزية في الذهن ممزوجة بالاستسلام ونورة الغضب . أما جل ما لديهم من مواهب فينحصر في القتال والخطابة وقد صُقِلت الخطابة وهذبت حتى بلغت أسلوباً رائعاً يستهوي النفس برونقهِ وجمالهِ ، وذلك لتناسق الطبيعة وهدوئها والفراغ الطويل الناتج عن قلة العمل في

(١٣) اشعياصح ٢٣ وحزقيال صح ٢٦ وما يليه

مضمار الحياة. فهو الجو الذي يترعرع فيه الراؤون والشهداء والمتصبون، فما بالك بجنس يخضع لمؤثر آنف لا عهد للسنين. قدم لمثل هذا الجنس عقيدة أو دعوة دينية فيكون رسولاً ومبشراً مخلصاً

لقد قيل بأن البادية أمدت العربي بعقيدة وزودته بطبيعة دينية، وصرح رينان Renan ان تناسق طبيعة البلاد التي يعيش فيها السامي من شأنه أن يحمله على الايمان بالتوحيد[١٤]. والواقع أن البادية وما امتازت به طبيعة البادية من التناسق لا تؤول الى الشرك، وان جميع الاديان السامية امتازت بميل قوي الى الوحدة. اذ كان لكل قبيلة إله واحد حسب محكم الارتباط والاتصال بأهلها لا يعترفون بسيد أو بزعيم سواه. وهذا الاعتقاد كان يدعوهم الى التوحيد إذ أنه علم الساميين أن يحولوا كل شيء الى علة واحدة هي علة العلل، وأن يحصروا اهتمامهم بإله واحد قهار تخضع لسلطانه جميع الآلهة. ونستطيع، اذن، أن نستبدل نظرية رينان وهي ان السامي مطبوع على التوحيد بقولنا كان للتوحيد في الدين السامي والعالم السامي أصل كبير

ولم تتم هذه الفرصة الا لقبيلة سامية واحدة. ولم يكن ذلك في بلاد العرب وانما في سوريا نفسها، أي في التربة التي كانت بطبيعتها تحمل القبائل السامية الاخرى على نبذ معتقداتها الدينية البسيطة الساذجة التي أوحتها اليها البادية والميل الى الايمان بالشرك الى أقصى حدوده. ولا غرو، فقد جعلت سوريا الساميين يملون بخمرة ما ألفوا فيها من أسباب الراحة والرفاهية فدفعوا بأنفسهم الى الاستمتاع بها وهكذا لم يسعهم، الا اعتناق عبادة الطبيعة، إذ أنه لم يظن الى سوريا أمة واحدة وإله واحد بل كثير من القبائل الصغيرة لكل منها سيدها وحامي ذمارها. هذا وان وثنية مصر والعراق أيضاً تسربت اليها وتآزرت على مناوأتها، ومع ذلك فقد كانت سوريا لاشبه جزيرة العرب مهداً للتوحيد. وقد بلغ توحيد بني اسرائيل أشده لا ينازعه منازع من القرن الثامن الى السادس قبل الميلاد أي في زمن فتوحات اشور الكبرى. وازاء تيار تقدم اشور الجارف أخذت آلهة سوريا القبائلية تنقرض تباعاً وتحول مجرى التاريخ الى تناسق عوامل تناسق الطبيعة في البادية السامية. وأمام هذه المشاكل التي جابهت بني اسرائيل أشرقت أنوار عبقريتها وعم تألقها العالم أجمع ولتحط الى الايمان بإله واحد قهار. ولم يكن هذا الاله مثال الامبراطورية الحربية التي دكت العالم دكاً وأرغمته قسراً على الرضوخ لنير الاستبداد والسكنة، إذ أنه لم يكن أحد آلهة اشور، وانما كان إله قبيلة بني اسرائيل الضعيفة[١٥]

(١٤) Histoire des langues sémitiques, ed 3, 1863; De la part des peuples Sémitiques, Asiatic Review, Feb & May 1859; and, in a modified form in his Histoire d'Israel vol. I.

(١٥) هنا ينتهي ما عربناه بتصرف قليل من الفصل الاول من كتاب رنت اما ما يأتي فهو من مصادر اخرى، لا يناقض ما جاء في كتابه وانما يمتاز عنه في الايضاح [المعرب]

كان لتطور الاحوال السياسية في الشرق القديم تأثير كبير في الآلهة إذ انها كانت عرضة للتبديل والتغيير فنجد مثلاً ان الاسرة الثالثة البابلية الاولى فرضت سيادة مردوخ إله بابل ، على المدن التي خضعت لسلطانها بدلاً من انليل ، إله نيبور القديم ، وقد أصبحت مدينة بورسبا تابعة للمملكة البابلية خضع إلهها نابو الى مردوخ وكان نابو إله الحكمة والمستقبل ويده الالواح التي يقرر فيها مصير كل انسان . كذلك حمورابي العظيم ، مؤسس المملكة البابلية (٢١٢٣ — ٢٠٨١ ق.م.) جعل لمردوخ إله بابل المقام الاول بين الآلهة الاخرى . فقد كان الاعتقاد الشائع عندئذ ان مردوخ ، نظراً لأنه أشد بأساً من بقية الآلهة ، قد ساعد حمورابي على التفوق على اعدائه اذ عمل على رفع اسمه ونشره بين الامم التي كانت تدين بسواه . فاذن ، ان انتصار أمة على أمة أخرى في ميدان القتال كان يعني أيضاً تفوق الهها[١٦]

ولما داهمت السامرة ، عاصمة مملكة بني اسرائيل في الشمال ، جيوش سنحاريب الجرارة بعد أن عنت لسلطانها دمشق ، واحتلتها (السامرة) عنوة سنة ٧٢٢ ق . م . طارت قلوب العبرانيين خوفاً وهلعاً وأخذت الشكوك تتسرب الى أفئدتهم بآلهتهم القومية ولا سيما عند ما شاهدوا جيوش سنحاريب على أسوار اورشليم وتحموا هزيم أدوات الحصار الاشورية تلك أسوارها كما ذكت من قبل أسوار دمشق والسامرة[١٧] ، عندئذ ذابت قلوبهم فرقاً وقالوا في أنفسهم ان إله الاشوريين أوسع سلطة وأعز جاباً من يهوه ، الههم ، إذ أنه لو كان حقاً ، إلهاً قوياً لما وقف ساكتاً أمام عدوه الألد اشور لا يبدي حراكاً

هنا نهض أشعياء وألقى عليهم خطبة بليغة زحزحت عن قلوبهم ما استحوذ عليها من اليأس والقنوط قائلاً : ان يهوه هو الذي يدير ساحات الحرب وميادين القتال وهو المتصر الظافر فيم الاشور واذا كان الاشوريون قد دوخوا فلسطين وخربوها فذلك لأنه هو استخدمهم للتنكيل بالعبرانيين في الشمال لانغماسهم بالشهوات واستسلامهم الى الملذات . اشعيا صح ١٠ : ٥ — ١٥ : —[١٨]

فكانت كلماته بلسماً لجراح العبرانيين الدامية فاستبدلوا باليأس رجاء وبالقنوط سروراً ولا سيما عندما أهم الوباء جيش سنحاريب وأهلك منه خلقاً كثيراً واضطره الى النكوص على عقبيه

---

(١٦) Grant, Elihu-The Orient in Bible Times, Philadelphia & London J.B, Lippincott Co.1920-١١٥-١١٤-١٠٢ [جرانت هو استاذ آداب التوراة في كلية هرتفورد]

(١٧) ملخصة عن كتاب العصور القديمة لبرستد ترجمة داود قربان

(١٨) الكتاب المقدس — طبع جمعية التوراة الامريكية . بيروت ١٩٢٦ ص ٤٨ ٤٩

(١٩) Nelson' Harold—Ancient History of the Near East

وهو كتاب صغير وضعه الدكتور نلسن احد اساتذة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية سابقاً لمساعدة الطلبة في الشرق على تفهم الدور الذي مثلته بلادهم على مسرح التاريخ ، لان الكتب الغربية ، في نظره ، انما وضعت من الوجهة الغربية ولذلك فهي لا تهتم كثيراً بتاريخ الشرق

وما أن مضى قرن على تقهقر سنحاريب الى نينوى حتى قمع البرانيون بسقوط نينوى ٦٠٦ ق.م. يد الماديين والكلدانيين. فهللوا وابتهجوا كثيراً لتخلصهم من ذلك الكابوس الذي كان يحرمهم لذة الرقاد واستنشاق نسيم الحرية العليل. على ان تسنم الكلدانيين عرش بابل بعد ان هدموا صروح الامبراطورية الاشورية لم يدع لهم فرصة طويلة للاستمتاع بخمرة الفوز والانتصار اذ ما عتم الكلدانيون ان دهموا اورشليم تحت قيادة نبوخذنصر سنة ٥٨٦ ق.م. واعملوا فيها ايدي الخراب والتدمير حتى غادروها قاعاً صفصفاً وأجلوا اهلها الى بابل[١٩]. وهنا تتلمس في نفسية البرانيين الشكوك في صحة التعاليم التي اخذوها عن انبيائهم وتسرب اليأس والكآبة الى افئدتهم — مزامير ١٣٧: ١ — ٤

« على انهار بابل جلسنا. بكينا ايضاً عند ما تذكرنا صهيون (٢) على الصفصاف في وسطها علقنا اعوادنا (٣) لانه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً رنموا لنا من ترنيمات صهيون (٤) كيف نرنم ترنيمة الرب في ارض غريبة »

ان هذه الكلمات تبين لنا تماماً درجة الحزن الذي فطر قلوب البرانيين في المنفى، اما بقية هذا المزمور فترسم لنا صورة حنينهم واشتياقهم الى اورشليم ومبلغ حقدهم على الكلدانيين الذين اذاقوهم مرارة الاغتراب والنأي عن الاوطان « (٥) ان نسيتك يا اورشليم تنس يميني »

وبينما كان هذا اليأس مستحوذاً على نفوسهم ارتفع من بينهم صوت مجهول بعث فيهم ميت الآمال قائلاً: كفاكم كآبة واستسلاماً الى الحزن والقنوط فما هذه المصائب التي دهمتكم الا تجربة اراد بها الله ان يختبر قوة ايمانكم، افإن اصابتكم مصيبة تنسونه ان ذلك لكفر مبين. ولكن تقوا برحمة الله فلسوف يسلط على الكلدانيين امة قوية تمزقهم شر ممزق وتعيدكم الى بلادكم آمنين — تلك هي امة الفرس — اذ ان جميع الملوك ليسوا الا آلات في يده يستخدمها كيف شاء، فقد استخدم، من قبل، كما علمتم، سنحاريب لانزال العقاب الصارم باولئك البرانيين الذين تبذوا تعاليم القويم واستسلموا في ملذاتهم وشهواتهم، كما انه سلط عليكم نبوخذنصر لامتحانكم فقط. فلم يسع البرانيين بعد ان سمعوا هذا الصوت الرباني الا ان يطأطئوا الرأس خاشعين. وهكذا ادركت الامة البرانية اخيراً بعد ما قاست من صنوف العذاب والآلام الواناً واشكالاً عظمة يهوه وسمة نفوذه، فبعد ان كانت تعتقد انهُ الٰه حرب جبار يختص بها وحدها ولا تتجاوز سلطته حدود البادية، موطنها الاول، اصبحت ترى فيه الآن الاب المحب الذي لا تقتصر محبتهُ على امة من الامم او شعب من الشعوب وانما تشملها جميعاً وذلك هو التوحيد بعينه

احمد بديع الخربي
الصلت، شرق الاردن مدرس التاريخ والجغرافيا في الصلت

(١٩) برستد ص ١٦٠ — ١٦٤